كيف تكون الصلاة طريقًا إلى العدالة؟

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٨/٨/٨م

كما أنـــزل الله تعالى على حواريّ عيسى عليه الصلاة والسلام مائدةً حسيّة من السماء لتكون غذاء أجسادهم، أنـــزل لهذه الأمة المحمدية مائدةً معنويةً هي غذاء أرواحهم ومنهاج حياتهم ومُنظِّم سلوكهم، فأتى بنموذجٍ شموليٍّ في مقدمة سورة المائدة عن هذه المائدة المعنوية، وأخَّرَ ذكر مائدة الطعام الحسيّة إلى آخر هذه السورة.

وقد قرأنا في الأسبوع الماضي الآيات العشر الأولى في سورة المائدة، ورأينا كيف تُمثّل نموذجًا من النماذج الشمولية في التشريع، فكل من قرأها يستطيع أن يرى مساحة الإسلام التي تُخاطب العادة والعبادة، وتنتقل في التوجيه ما بين سلوك الفرد ونظام الجماعة.

كما وأننا شرحنا بعضًا من معاني تلك الآيات، فإننا في هذا اليوم ننتقل إلى جزئها الثاني الذي قرأناه، لنستخلص عبرة وفائدة سلوكية.

والآيات العشر الأولى في سورة المائدة هي قوله تعالى:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آَمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ، حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ، الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آَتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ

وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } [المائدة: ١-١٠].

وهكذا تنظر في المائدة السماوية المحمدية التي أنـــزلها الله تعالى إكرامًا لهذه الأمة المحمدية فتجد فيها من العناوين ما يشعرك بشمولية هذا الدين، منطلقًا من المعاملات بقوله: { أَوْفُوا بِالْعُقُودِ } لأنه يبني أمة ذات أخلاق وذات عهد وعقد، ولا يبني مجتمعًا يقوم على أساس المصلحية المجرّدة عن الأخلاق، فينطلق من ضبط المعاملات بالأخلاق، إلى أحكام الحجّ، ثم يمر على الحاجات البشرية التي يحتاجها الإنسان من الطعام والشراب، ويذكر أحكام الصلاة، ويختم مُعْنْوِنًا للقضاء في مجتمع الإسلام.

وبين الآيات هذه يذكر بعض الثوابت في تشريعنا الإسلاميّ التي يظهر من خلالها هويته المتوازنة الواقعية، كإسقاط الحرج عن المضطر، ويضمن لهذه الأمة بقاء الأحكام الشرعية التي أنـــزلها الله سبحانه وتعالى محفوظة بحفظ الله: { الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ } فدينُكم مستمرٌّ رغم أنف الذين كفروا به، بأحكامه كلها لا ينقص منها حكم، حتى أحكام الإمارة حينما يفقدها الناس على مستوى مجموع الأمة يحافظ عليها ولو في ثلاثة، فلا يغيب حكم من الأحكام.

{ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا }

وإذا كان الله يرضى الإسلام، فكيف بأولئك الذين انحطُّوا عن رتبة الأنعام لا يرضون بما رضي الله به؟ الله رضي بالإسلام ولا يرضى الإنسان بالإسلام؟!

الله سبحانه وتعالى رضي الإسلام لنا منظِّمًا وموجِّهًا ومرشدًا، فمن أنت أيها الإنسان المُفتقِر الضعيف حتى تقول: رضيت، أو تقول: لم أرضَ؟

أي شيء أنت أيها الإنسان الذي يتمرّد على ما رضيه الله؟

رضي الله لك أسلوبًا في المعاملة، وأسلوبًا في العادات، وأسلوبًا في المعاملات، وأسلوبًا في العبادات... فمن أنت أيها الإنسان حينما تقف متمرِّدًا على ما رضيه رب العالمين وملك الملوك سبحانه وتعالى؟

وأنت الذي ناصيتك بيده، ومقاليد أمرك بيده، فهو وحده الذي يُعزّ ويُذل، قال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: ٢٦]

ووقفنا في شرح الآيات في الأسبوع الماضي عند الصلاة، وأحببت في هذا اليوم أن أستفيد وأفيد من خلال قراءة هذه الآيات الكريمات، حينما يذكر الله سبحانه وتعالى أحكام الصلاة ثم يتبعها بعنونة القضاء، والقضاء هو ضابط العدالة، فما المناسبة بين الصلاة والعدالة؟

ولماذا يحكي القرآن عن الصلاة وأحكامها ووضوئها وغسلها وتيممها، ثم يحكي بعد ذلك عن العنوان الكبير الذي وضعه للقضاء في مجتمع الإسلام؟

إنه سبحانه يريد أن يبيّن لنا الارتباط بين صلة العبد بربه حينما تتحقق ووجودِ العدالة في المجتمع، فحينما توجد صلة العبد بربه ويسجد لله سبحانه وتعالى مُقِرًّا ومعترفًا بالعبودية، فإنه سيكون في المجتمع صاحب عدالة.

ومهما تطورت الأنظمة الوضعية محاولة أن تقترب من العدالة، لا يمكن لها أن تصل إلى مستوى يكون فيه الإنسان عادلاً مع نفسه، فحينما يتحدّث القرآن عن العدالة يتحدث عن شهادة الإنسان على نفسه، وعن عدالة الإنسان في ذاته، ولا تتحقق عدالة الإنسان في ذاته من خلال القانون الوضعيّ، لأنه لا يتدخّل في داخل الإنسان وباطنه، ألم يقل رأس الولايات المتحدة الأمريكية في مذكراته: استطعنا أن نصل إلى القمر، لكننا عجزنا عن تنظيم العلاقة بين الجار وجاره؟

أمّا صلة العبد بربه فإنها تجعل الإنسان في خلوته متساويًا مع حاله في جلوته، لأنه مراقب لله سبحانه وتعالى في خلوته كما يراقب الله في جلوته، ويستشعر تعظيم الله تعالى في خلوته حين لا يراه الناس، كما يستشعر تعظيم الله في جلوته وهو بين الناس.

فصِلة الإنسان بالله سبحانه وتعالى هي التي تدرّب الإنسان على الطاعة لله وحده.

وسيبقى الإنسان عبد الأشياء، وعبد الغرائز، وعبد الرغبات، وعبد الشهوات... حتى يصل إلى العبودية لله سبحانه وتعالى وحده.

فإذا تحقق بالعبودية لله تعالى وحده، فإنه عند ذلك يتحقق بحقيقة الحريّة، فليست حقيقة الحرية ما نراه في ليلة الأحد في بلاد الغرب حين يبتعد الإنسان عن مساحة القانون، إنما حرية الإنسان تحرُّره عن كل الأشياء، وحين يتحرر عن كل الأشياء يستمد توجيهًا من سيده الذي هو العالم بما خَلَق: { أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [الملك: ١٤] فالصلاة ليست حركات.

وقد تسألون - وشهر رمضان مُقبِلٌ علينا، والمساجد تمتلئ بالصلاة والمصلين - لماذا لا يتقوّم سلوكنا في أسواقنا ومتاجرنا ومصانعنا؟ ولماذا لا يتقوّم سلوكنا في أنظمة حياتنا؟

والجواب: هو أننا أصبحنا نصلّي لأننا تعوّدنا أننا في شهر رمضان نصلّي صلاة التراويح، حتى إنني رأيت من يعتني بصلاة التراويح في نفس الوقت الذي يتجاوز فيه أحكام الله سبحانه وتعالى وحدوده، فيقصّر في الفرائض والواجبات ويتعدّى حدود الله في المحرمات: **"مِنْ عَلامَاتِ اتِّبَاعِ الهَوَى المُسارَعَةُ إِلَى نَوافِلِ الخَيْرَاتِ، وَالتَّكَاسُلُ عَنِ القِيَامِ بِالوَاجِبَاتِ"**، هكذا قرر صاحب الحِكم العطائية رحمة الله عليه من خلال فهمٍ عميقٍ للكتاب والسنّة.

نعم، فكما تحوّلت الأعراف والعادات والأصول الاجتماعية عند بعض الناس إلى ثوابت لا يمكن تجاوزها، أصبحت صلاة التراويح ممارسة من الممارسات التي لا يُقصِّر فيها من كان قريبًا أو بعيدًا، فهو يقع في الحرام، ويتعامل بالربا، ويرتكب المحظورات، ويُقصِّر في الفرائض فيما أوجبه الله سبحانه في سلوكه... لكنه يحافظ على الصلاة.

فهذه صلاة صوريَّةٌ لم تُنتِج بعدُ الأثر الذي قرر القرآن أنه يظهر عند الصلاة، لأنه سبحانه وتعالى قرر في كتابه المنير وهو الصادق سبحانه وهو أصدق الصادقين: { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } [العنكبوت: ٤٥] وما قال: صلّيت، فإذا أقمت الصلاة سيظهر أثرها السلوكيّ، فتبتعد عن الفحشاء والمنكر.

ولو أن مجتمعاتنا الإسلامية كانت تقيم الصلاة، لابد أنها ستتحول إلى مجتمعات فاضلة عادلة.

أما الصلاة الصورية فإنها تشابه الحركات الرياضية، لأن المطلوب أن يكون القلب مُصلّيًا مع صلاة الجسد، فإذا صلّى الجسد و لم يصلِّ القلب، وإذا سجد الجسد و لم يسجد القلب، وإذا ركع الجسد و لم يركع القلب... فما قيمة تلك الصلاة الصورية، فهكذا تكون صلاة المنافقين، لأن الفرق بين المنافق والمؤمن إنما هو في صلاة قلبه، بل إن المنافق يزداد ويتفوّق على المؤمن كثيرًا في السلوك الظاهر، ألم يقل سبحانه وتعالى وهو يصف المنافقين: { وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ } [محمد: ٣٠]؟

فقد كانوا يزيدون في الثناء والفصاحة أمام النبي صلى الله عليه وسلم، فتنظر إلى أحدهم فتعجب من عباراته التي يصفُّها صفًّا مثنيًا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومثنيًا على الإسلام.

وما أكثر الذين يتاجرون اليوم بالعبارات!

وما أكثر الذين يريدون أن ينسبوا أنفسهم إلى الإسلام من خلال الكلمات، أما سلوكهم وأما واقع معاشهم فإنه يتناقض مع الإسلام!

إذًا فكيف يكون مصلّيًا؟

الصلاة تُنتج عدالة وفضيلة ومجتمعًا ليس فيه إلا الأخلاق الفاضلة.. فإذا وقع في الذنب سارع إلى التوبة منه.

واقرؤوا قوله تعالى: { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } [المؤمنون: ١-٩].

فبدأ بالصلاة وختم بالصلاة، وبين ذكر الصلاة والصلاة سلوكٌ بشريٌّ فاضل، لأن مُبتدى الصلاة سيُنتج سلوكًا يتميّز بالفضيلة، فتكون صلاته صلاة ونهايته صلاة.

وقد ذكرتُ فيما مضى قصة الداعية النورسي رحمه الله، الذي دعاه يومًا من الأيام كبيرُ مؤسسي تركيا إلى البرلمان ليلقي كلمة وهم يؤسسون الدولة الجديدة، فتكلّمَ سعيد النورسي رحمة الله عليه مدة ساعة في البرلمان وهو يتحدث عن الصلاة، وما تحدث مدة ساعة كاملة في البرلمان إلاَّ عن الصلاة، وكانت خاتمة كلمته أنه وقف فأمَّ البرلمانيين في البرلمان بالصلاة، ولما استدعاه كبير مؤسسي تركيا، وقال: إنّا دعوناك ونحن نريد تأسيس الدولة الحديثة، وما تُكلِّمنا إلاَّ في الصلاة؟ فقال له: إن الذي يخون ربّه يخون شعبه.

هؤلاء البرلمانيون سوف يكونون على مسؤولية عظيمة لحفظ الأمانة، فهم مُخوّلون من الشعب حتى يحفظوا بلادهم، فإذا كانوا يخونون ربهم كيف لا يخونون شعبهم؟

قال له: يا باشا، الذي يخون ربه يخون شعبه.

فحين نقطع الصلة - متأثرين بالغرب في تجربته الفاشلة روحيًّا وخُلُقيًّا، وإن نجحت على المستوى الماديّ نجاحًا نسبيًّا - فحين نقلّد الغرب ونقطع الصلة بين الصلاة والسلوك، ولا نعطي القيمة الروحية ما ينبغي أن تأخذه من المنـــزلة، فإننا سنفقد مزيتنا التي ميّزنا الله بها، كأمة مؤمنة متماسكة.

ألم يقل ربُّنا: { وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [آل عمران: ١٣٩]؟

فنحن لا علوَّ لنا ولا سيادة إلاَّ بالإيمان، وعمادُ الدين الصلاة، أي: صلة العبد بربه وتحققه بالعبودية له واستشعاره بأنه عبد ربّه.

واقرؤوا قوله تعالى: { إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا، إِلاَّ الْمُصَلِّينَ } ثم قال بعدها: { الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ } [المعارج: ١٩-٢٣]

ورحم الله العارفَ جلالَ الدين الروميَّ الذي يقول: "لا يمكن للإنسان أن تكون صلاته دائمة في الصورة"، فالصلاة الدائمة هي صلاة الروح، وصلاة الصورة مؤقتة، فتارةَ تكون مصليًّا وتارةً تكون بائعًا وتارةً تكون مشتريًا... فكيف يقول الله سبحانه: { الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ } ؟

إنه يشير إلى صلاة الروح، فصلاة الروح دائمة، يقول تعالى: { رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ } [النور: ٣٧] فأرواحهم مصلّية وأجسادهم بائعة ومشترية.

إذًا: فالمائدة المعنوية التي ينـــزلها الله سبحانه وتعالى لنا في الفواتح العشرة هذه - والعشرة كاملة - تنتج لمن تأمَّلها وعيًا للمطلوب ومعرفة للمقصود، فينتقل من القشرية والصورية إلى التفاعل مع المضمون، والتفاعل مع الدين بحقائقه.

وأختم بكلمة أمير المؤمنين عمر رضي الله تعالى عنه، يومَ أن قال: **"نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، ومهما نبتغي العزة بغيره أزلنا الله"**، فنحن قوم أعزنا الله بالإسلام، وإن تحققنا بحقيقة الإسلام، فالعزة تنتظرنا، وإن أعرضنا عن حقائق الإسلام، فالذلّ ينتظرنا.

اللهم لا توجِّه قلوبنا إلاَّ إليك، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.